صورة الجزائر والعرب في الأدب الأوربي

أهداف الدرس:

- استعراض المراحل التاريخية الكبرى التي أثرت في تشكل صورة الجزائر والعرب في المخيال الأوروبي (الحكم العثماني، الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830، حركات التحرر)
- التعرف على أبرز **الصور النمطية** التي كرّسها الأدب الأوروبي عن "الجزائري" و"العربي" (مثل: القرصنة، الحريم، الصحراء، التعصب، الهمجي)
- تحليل نماذج من **أدب الرحلة** الاستعماري (مثل نصوص أوجين فرومنتان، أو غوستاف فلوبير عن الجزائر) واستخراج آليات بناء "صورة الآخر."
- تفسير ظاهرة **الحنين إلى الشرق** أو" **الغرائبية** (Exoticism) "في الأعمال الأدبية والفنية الأوروبية التي تناولت الجزائر.

نص المحاضرة:

01-صورة العرب في الأدب الأوروبي:

عندما تحدثنا في الحصة السابقة عن علم الصورة قلنا أن مسألة النظر إلى الأخر محصورة بين رؤيتين إما أن تكون رؤية **إيجابية** أو أن تكون **سلبية**، في حالة العربي تم النظر إليه في الأدب الأوروبي من زاوية سلبية محضة، فصورة العربي سواء في أدب الرحلة الأوروبي أو الأدب الأكاديمي دائما ما كان يتم تحريفها، ورسمها بصور بعيدة تماما عن الواقع، وقد تجلى هذا خصوصا في تلك النصوص التي كتبها الرحالة والمستشرقون "انعكست للشرق الإسلامي صور مختلفة في الأدب الفرنسي

تبعا للعصور المختلفة ففي العصور الوسطى التي عادت فيها النزعات الدينية وتحكم التعصب الأعمى ظهر المسلمون في الأدب الفرنسي بصورة وثنيين لا أخلاق لهم سرعان ما ينهزمون أما أبطال المسيحية فيرتدون عن دينهم"[1] إذن الصورة التي تم نقلها في الآداب الأوروبية هي صورة مغايرة تماما لواقع العربي وواقع الشرق وهذه الصورة هي عبارة عن تمثلات لم تبدأ فقط من العصر الحديث بل كان لها جذور موغلة القدم، وهناك عدة أمثلة نستطيع من خلالها تبيين هذه الرؤى "رحلة إدوارد لين صاحب أشهر مؤلف صدر له سنة 1836م بعنوان **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم**، الذي أرضى به نزعة الغربيين في البحث عن الصورة المثيرة التي رسمها عن الشرقي وشرقه. وأيضا المعروف **بلورنس العرب** صاحب كتابات **أعمدة الحكمة السبعة** والذي رسم صورة نمطية للشرق، أكد بها الرؤى السابقة لإدوارد لين حيث صور الشرقيين على أن عقولهم غريبة مظلمة مليئة بالكآبة والشعور غير السوي بالأهمية، عقول تفتقر إلى الهداية لكن فيها الحماسة والخصوبة في الإيمان أكثر من عقول الناس أجمعين"[2]

عند الحديث عن صورة الجزائر في الأدب الأوروبي يجب أن نعود إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، فقد بدأ الأدب الأوروبي يكتشف الجزائر من خلال عدسة الاستشراق. لم يكن هذا الاكتشاف بريئاً، بل كان متواطئاً مع المشروع الاستعماري في بناء شرق "مغاير" يحتاج إلى التفسير والتملك. يشير بيتر دنوودي في دراسته الرائدة *كتابة الجزائر الفرنسية* إلى أن الكتاب

---

[1]- غنيمي هلال: الأدب المقارن، ص333.

[2]- نصيرة كبير: الصورولوجيا في الأدب المقارن(الصورة الأدبية للآخر)، ص345.

الأوروبيين مثل غوتييه وفرومانتين قدموا الجزائر من خلال "أدب الموانئ كانت هذه النصوص ترسم الجزائر كفضاء غامض وساحر، حيث تختلط الحواس وتتلاشى الحدود بين الواقع والخيال. العرب في هذه الصور كانوا شخصيات نمطية: البدو الرحل في الصحراء، أو سكان المدن الغامضون في القصبات المزدحمة. هذه الصور الاستشراقية لم تكن مجرد انبهار بالغرابة، بل كانت أداة معرفية تبرر الوجود الفرنسي. فـ"الشرق" المصوَّر على أنه فوضوي ومحتاج إلى النظام، ينتظر يد الحضارة الأوروبية لتُخرجه من ظلام التخلف.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تطور التمثيل الأدبي للجزائر ليتجاوز السحر الاستشراقي إلى مشروع أكثر وضوحاً: بناء هوية "جزائرية" أوروبية تنكر جذورها العربية الإسلامية وتعيد اكتشاف جذورها "اللاتينية." هنا يبرز دور كتاب مثل لويس برتران وروبرت راندو، الذين أسسوا تياراً عُرف بـ"الرواية الجزائرية .(*Algerianists*) وفقاً لتحليل دنوودي، اعتمد هؤلاء الكتاب على "عملية انتقائية متطرفة" أدت إلى تهميش السكان الأصليين في المغرب العربي، من أجل إعادة اكتشاف الجذور اللاتينية للبلاد في رواياتهم، صار العرب إما غائبين، أو حضوراً هامشياً مزعجاً. وحل محلها أسطورة "الجزائر البيضاء" المتوسطية التي تنتمي إلى روما أكثر مما تنتمي إلى قرطاج أو دمشق. هذه الاستراتيجية الأدبية كانت تسعى إلى طمس الهوية العربية للجزائر، وتقديم المستوطنين الفرنسيين والإسبان والإيطاليين كأنهم الورثة الحقيقيون للأرض. وكما يوضح دنوودي، فإن هذه الكتابات بنت هوية الأقلية الأوروبية على أساس "الغيرية ، فهي لم تكن فرنسية خالصة، ولا جزائرية عربية، بل كيان غير مستقر ومؤقت.

يمكننا القول في الأخير أن البنية العميقة التي حكمت صورة الجزائر والعرب في الأدب الأوروب مرت عبر مراحل أهمها:

1. **المرحلة الأولى** (**الاستشراق**)الجزائر مكان للرغبة والخيال، والعرب موضوع للمشاهدة والتحليل.

2. **المرحلة الثانية** (**الاستعمارية**) الجزائر مكان يجب إعادة اختراعه، والعرب يجب إبعادهم أو تجاهلهم لبناء هوية "بيضاء" متوسطية.

3. **المرحلة الثالثة** (**التساؤل**)الجزائر أرض الأزمة الوجودية، والعرب غياب مؤلم يعكس عجز الأدب الاستعماري عن احتوائهم.

لكن السؤال الأهم: أين الصوت العربي في كل هذا؟ الأدب الأوروبي عن الجزائر، حتى في أرقى تجلياته عند كامو، ظل أدباً عن العرب لا أدباً معهم .إنها صورة من جانب واحد، لا تعكس حقيقة الجزائر بقدر ما تعكس حاجة الأوروبي إلى بناء هويته من خلال نفي الآخر أو استحضاره كهامش.